البلاغة بين اللفظ والمعنى

« من عصر الجاحظ الى عصر ابن خلدون »

اختلف القدماء في تعريف البلاغة وتحديد مفهومها . ذلك لأنها في حقيقتها ليست إلا الجمال في الكلام ، أو كما قال أحد الباحثين في البلاغة قديماً : «هي أداء كنه ما في نفس المتكلم الى السامع بأجمل عبارة» ، والجمال يقرّ بوجوده دائماً ويختلف في تعريفه وتحديد درجته وفي وضع القواعد له ؛ وكان عنصراها الرئيسيان عندهم اللفظ الفصيح والمعنى الشريف ، وكان بعضهم يرجح جانب المعنى كما كان بعضهم يرجح جانب اللفظ ، على ان هذا الاختلاف كثيراً ما كان ظاهريا شكليا فقط ، وكثيراً ما كانوا متفقين في فهم وتذوق الكلام البليغ والحكم عليه ؛ وإنما كان يرجع الاختلاف في مثل هذه الحالات الى ان بعضهم كان يدخل في عنصر اللفظ ، ما يجعله بعضهم تابعاً في حقيقته إلى المعنى . فالوسائل البلاغية التي تدخل في تحسين نظم الكلام يعدها الجاحظ وغيره اموراً لفظية ، ويأبى عبد القاهر الجرجاني إلا ان تكون اموراً معنوية . وليس هنا مكان التفصيل في هذا ، وسيأتي في مناسبته ، واكتفي الآن منه بالاشارة . وقد يكون هذا الاختلاف اكثر اصالة واعمق عند آخرين ، فيرى بعضهم ان الشأن كله في البلاغة للمعنى الكريم الجميل ، من حكمة وغيرها ، بينما يرى بعضهم الآخر ان الشأن كله للفظ فيولونه العناية ولا يكون المعنى عندهم إلا تبعاً له ، ونرى غير اولئك وهؤلاء قوماً يرون ان البلاغة لا تتحقق إلا بكمال العنصرين اللفظ والمعنى ، وان الذي يوفق بينهما هو حسن السبك وجودة النظم .

وكلّ تعريف من التعاريف التي اوردوها ـ وسنراها عند الكلام على كلٍ من المؤلفين الذين سيتناولهم البحث ـ بل كلها مجتمعة لا تفي في بيان ما نقصده من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لفظ البلاغة وما نفهمه منه الآن ، باعتبار انها جمال الأداء في الكلام الأدبي من شعر ونثر . والتعريف الشائع في كتب البلاغة المتداولة بين ايدينا الآن ، وهو ان البلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، تعريف ناقص لا يفي بالغرض ؛ فهو غير جامع ولا مانع وليس إلا وصفاً واحداً من جملة اوصاف يجب ان تتوفر لتكوّن عناصرَ الكلام البليغ ـ باعتباره مرادفاً للجميل ـ وهذا التعريف يمكن ان يدخل في الأدب ما ليس منه ، فالنص العلمي الفصيح الكلمات الموافق لمقتضى الحال باعتبار انه يقال في مناسبة علمية ، كالنصوص التي تتحدث عن شرح نظريات الطبيعة والكيمياء ، ليست نصوصاً ادبية ، ولم تتوفر فيها عناصر البلاغة ، برغم انها فصيحة وافقت مقتضى الحال ، وجملة آيات من القرآن الكريم او قصة مترجمة لتولستوي او قصيدة للبحتري ، توصف بالبلاغة ، ولكن موافقة مقتضى الحال والفصاحة ليسا كلّ ما فيها ، بل فيها عناصر اخرى ربما كانت اهم منها ولم يشر اليها هذا التعريف في كثير ولا قليل ، وربما كان هذا التعريف « البلاغة هي اداء كنه ما في نفس المتكلم الى السامع بأجمل عبارة » خيراً منه ، واكثر دلالة على المراد بلفظ البلاغة .

ونحن الآن ، وبعد ان مضت على هؤلاء المؤلفين الذين ندرسهم قرون عديدة نضج خلالها الفكر وتطوّر وتقدم كثيراً ، وبعد ان اتصلنا بآفاق جديدة أطلعتنا على ألوان من الآداب الغربية والشرقية لم يكونوا يعرفونها ، كفن القصة وفن الأدب التمثيلي ؛ لم نعد نكتفي بمفهومهم للبلاغة ولا نقتنع بتعريفهم ، بل اتسع مفهومنا عن البلاغة او فن القول الجميل ، وأصبحنا ندرك منها عناصر بارزة تفصل الكلام فيها ، وكانوا هم إما بين مكتف بالاشارة اليها باختصار ، أو مهمل لها تماماً ، وذلك كعنصري العاطفة والخيال .

والواقع أننا الآن لا نعد القطعة الادبية قد استوفت جمالها إلا إذا حوت عناصر اربعة هي الفكرة والعاطفة والخيال والأسلوب وكانت فيها هذه العناصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قوية متناسبة وننظر الى هذه القطعة ـ صغرت أو كبرت ـ على أنها صورة لتجربة نفسية للأديب ترجع في كل الأحوال الى تفاعل نفس الأديب مع الطبيعة التي لا تفارقه ، ونرى أن هذا الأديب تزداد بلاغته كلما ازدادت قدرته على نقل هذه التجربة الخاصة به الينا بحيث يجعلنا نعيش نفس تلك اللحظة التي عاشها ونشعر بنفس التجربة ، وعلى هذا فهو مضطر ، في اظهار الفكرة التي عصفت في عقله والعاطفة التي حركت شعوره فألهب فيضها خياله الى ان يجمع من مرئياته الماضية المختزنة في ذاكرته ولاشعوره صوراً واضحة متصلة تساعد على ابراز كل المشاهد المادية والحالات المعنوية بأمانة ، وانما يبرزها مستعيناً بالأسلوب الخاص به ، والذي هو قطعة من نفسه ، بل هو صورة عنها ، واضح بوضوحها ، مرتبك بارتباكها ، مظلم بإظلامها ، راقص بطربها ، باكٍ بغمها وكدرها . ومن هنا كان لكل أديب اسلوب غير اسلوب الآخر ، والفاظ خاصة به غير الفاظ الآخر ، وكانت الألفاظ بصورة خاصة صورةً لمزاج الأديب ، فخمة اذا كان كبير النفس او متكبراً متعاظماً ، سهلة اذا كان دمث الأخلاق ، موسيقيةً اذا كان مرحاً نشيطاً يرى الدنيا له ضاحكة ، وإنما يشرق ضحكها من نفسه .

والفكرة في البلاغة العربية والنقد الأدبي العربي لم ينظر اليها على أنها تنتظم الموضوع من أوله الى آخره ، لأن القصيدة العربية نفسها لم يكن لها فكرة عامة ، وسور القرآن الكريم كلها ـ الا بعض سور منه فقط ـ لم تكن تدور حول فكرة واحدة عامة تنتظمها ، وانما كانت القصيدة مجموعة افكار ، قد تكون متباينة وقد تكون غير مترابطة ، جمع بعضها الى جانب بعض وكان لهذا كل بيت مستقلاً بفكرة بل كثيراً ما يشتمل البيت على معنيين ويعتبر لذلك أبلغ ، وكذلك الأمر اذا كثرت فيه التشبيهات ولم يحتج معناه الى ان يكمل في البيت الثاني وذلك لأن العقل العربي يمتاز بالتعبير عن فكرته بالايجاز ، ويميل الى ذلك ، ويكره الاسهاب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والعاطفة لم يفردها البلاغيون في البحث ولم يجعلوها ضمن أبحاثهم ، كما أن النقاد لم يوفوها حقها ، والشاعر العربي في التعبير عن عاطفته مثله في التعبير عن فكرته يميل الى الايجاز وعدم اللف والدوران ؛ والخيال الخالق الواسع مفقود عند العرب الأقدمين ، ولم يعرفوا الا الخيال التصويري القريب المتناول الذى يقتصر على التشبيه والاستعارة وقد سماه بعض من تكلموا في البلاغة بصور تأدية المعنى ـ كعبد القاهر ـ أو بالتصوير ـ كالجاحظ ـ

والأسلوب عبر عنه العرب بالنظم تارة او بالسبك او بالتأليف احياناً اخرى وجعلوه قائماً على علم النحو وعلم المعاني بما فيه من تقديم وتأخير وايجاز واطناب وفصل ووصل كما جعلوه متصلاً بعلمي البيان والبديع . وجعلوا وظيفته تأدية المعاني بترتيب الألفاظ ترتيباً مخصوصاً مراعىً فيه قواعد علم النحو بمعناه الواسع ، كما فهمه عبد القاهر الجرجاني ـ وسنرى ذلك ـ وجعلوا للألفاظ وظيفة مزدوجة : من حيث نطقها مفردة ، وتلاؤمها مجتمعة وموسيقاها ـ وهذا ما عبروا عنه بالفصاحة ـ ومن حيث حسن وضعها في مواضعها لتدل على المعاني ، وقالوا ما معناه ان اسلوب الكلام يجب ان يختلف باختلاف المقام ، وكان قسم كبير منهم يقول ان البلاغة الايجاز ، وذلك لفكرهم الايجازي كما قدمت .

فلا بد اذن حين مقارنة تعاريفهم للبلاغة وعلاقتها باللفظ والمعنى بما نفهمه نحن الآن من لفظ « البلاغة » من مراعاة طبيعة الأدب العربي نفسه الذي يتطلب وضع قواعد بلاغية خاصة تلائمه ، ولا يمكن ان تنطبق عليه قواعد البلاغة والنقد الحديثة انطباقاً تاماً او واسعاً ، لانفراده عن الآداب الأخرى بصفات مميزة فارقة ، والا وقعنا في الخطأ ، وكل ما يجب ان نعمله هو أن نستأنس بقواعدنا الحديثة استئناساً يكمل ما كان في امكان العرب ان يكملوه في تعاريفهم البلاغية ، ولا نجور فنكلف قوماً بما لم يكن مستطاعاً في زمانهم .

وكانت تدور المعركة بين فريقين منهم ـ ولا سيما بين عبد القاهر وخصومه ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حول نظم الكلام ، هل يراعى فيه ترتيب المعاني في النفس فتكون المعاني النحوية ـ وبالتالي الألفاظ ـ خدما لتأديتها وصورا لترتيبها في النفس ، ام تراعى فيه الألفاظ باعتبار تلاؤمها في النطق وفي الموسيقى ، وسنرى كيف يشن عبد القاهر لذلك حربًا شعواء على خصومه . ويلاحظ ان المؤلفين قد اختلفوا في مدلولات الفاظ الفصاحة والبلاغة والبيان ، وكثيراً ما كان أحدهم يقصد باحداها ما يقصد غيره بالأخرى مما سيبين في حينه كما يلاحظ ان مما يقلق الباحث عدم تنظيم هذه الأبحاث وغيرها في كتب هؤلاء المؤلفين ، وكثير منهم يكررون الحديث فيها أكثر من مرة ، ويضطربون فيها ، فينقضون ثانيًا ما اقروه أولاً ، وكثيراً ما يأخذ احدهم عن الآخر شيئًا دون ان يعمل فكره فيما يأخذ فيأتي بعد صفحات بنقيضه بعد أن كان قد حبذه ـ كأبي هلال العسكري مثلاً ـ وأظن ان العامل في هذا الاضطراب هو اختلاف الامثلة البليغة التي تعرض لهم ، من حيث تناسب عناصر البلاغة فيها كثرة وقلة ، فقد تغلب فيها عناصر اللفظ او عناصر المعنى او العاطفة . وهذا يتطلب مرونة في قواعد البلاغة ، ولما كان اكثر هؤلاء المؤلفين يوردون اقوال من سبقوهم فيتعرضون لها بالنقد او الموافقة ، او يتركونها بدون تعليق ، ويذكرون في ثنايا ذلك او بعده او قبله آراءهم الخاصة دون ان يتبعوا في ذلك نظامًا ، آثرت في دراسة رأي المؤلف أن اذكر الآراء التي ذكرها لغيره ، وما اخذ منها وما علق به عليها ، ثم رأيه صريحًا ـ اذا ذكره ـ ، وردّه على من يخالفه بعد ذكر نظرية المخالف ، ثم اورد نقدي لرأيه . وابدأ بالجاحظ .

* * *

الجاحظ

توفي عمرو بن بحر الجاحظ في سنة ٢٥٥ هـ وهو أسبق المؤلفين الذين سندرس هذا البحث في كتبهم زمنًا ، وكتابه البيان والتبيين فيما وصل الينا ، هو الكتاب الأول الذي يتناول ما يتصل بعلم البلاغة من الأبحاث في اللغة العربية ، وليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هو الوحيد بين كتب الجاحظ الذي يتناول فيه مثل هذه الأبحاث فقد تناولها أيضاً في كتابه الحيوان الذي أورد فيه خلاصة رأيه في البلاغة . وسبق هذا الكتاب عهداً يطلعنا على الأفكار الأولى التي قيلت في هذا الموضوع والتي هي مستمدة من واقع الحال والبيئة ومفهوم اهل ذلك العصر عن روح البلاغة فهو يصور اذن مرحلة من مراحل تطور مفهومها الذي لا شك في أنه اختلف وسيختلف باختلاف الزمان والبيئة . ذلك لأن نظرة الناس للجمال سواء المادي منه والمعنوي ليست ثابتة . فعصر يرى ادباؤه أن جمال الكلام في الايجاز ، وعصر تكون البلاغة فيه في الاطناب وقوم يفضلون جانب المعنى وآخرون يؤخذون بجمال اللفظ ، وقد يكون رأي الأديب في البلاغة ردّ فعل قوي لفكرة في البلاغة سائدة في عصره قد وصلت الى حد المبالغة ، وخشي منها على الذوق الفني والجمال الأدبي ، فيناصر الفكرة المعاكسة بغريزته . وذلك يؤدي الى حفظ التوازن نوعاً ما في الأذواق العامة .

على أن كتاب الجاحظ إذا كان له ميزة التقدم ففيه سيئة الاستطراد وعدم التنظيم ، فهو يأخذ في الفكرة ويعيد ، ويتكلم عنها في عدة أماكن ، ويفصل بين فصولها والأحاديث عنها بأحاديث غريبة لا صلة لها بها ، ويتعب الباحث في تتبعه ودراسة فكرة معينة عنده ، وهذا شأن الجاحظ في كل كتبه وفي كل الابحاث التي يتناولها فيها ، وذلك راجع الى أنه كان كدائرة معارف ثقافية وأدبية في عهده ، فيها كثير من التفكير كما فيها جانب عظيم من الفوضى وعدم التجريد والتحديد والتنظيم والى أنه كان يعمد الى خلط الجد بالهزل ، ولهذا لا نراه في كتابه يأخذ فكرة معينة فيشبعها بحثاً وينتهي منها ثم ينتقل الى غيرها وإنما يستطرد خلال الحديث عنها الى غيرها في أحاديث طويلة تنسي القارئ ما كان فيه أولاً وما هو بصدد تمحيصه ودرسه . وكان عصر الجاحظ عصر ازدهار علم الكلام والخطابة العباسية كما كان عصر ازدهار الكتابة في قصور الخلفاء وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجاحظ شديد الاتصال بهذا الوسط ، ولهذا نراه يتحدث عن آراء هؤلاء المتكلمين والخطباء والكتاب في البلاغة المتعلقة بالخطابة والكتابة أكثر مما يتحدث عن البلاغة في الشعر . والمقاييس البلاغية وإن كانت في الجانبين متقاربة إلا أن كثرة حديثه في جانب الكتابة والخطابة له صلة بحياته العقلية والفنية متكلماً وكاتباً . ولهذا نراه يمدح المتكلمين من الكتاب كثيراً ويرى أن طريقتهم في الكتابة هي المثلى .

ولما كان كتاب الجاحظ فاتحة لغيره من الكتب في الحديث عن البلاغة فإننا نرى أن المصطلحات المستعملة في هذا الفن لم تكن قد حددت مفاهيمها بعد بدقة ، ولذلك نرى أن الجاحظ يستعمل كثيراً ألفاظ البلاغة والفصاحة والبيان كمترادفات تدل على معنى واحد بينما نراها في العصور المتأخرة قد تمايزت مدلولاتها ولم يعد من داع لأن يلتبس معنى احدها بمعنى الآخر فكثيراً ما يستعمل الجاحظ الفصاحة بمعنى البلاغة . والمثال على عدم استقرار هذه المعاني الاصطلاحية عنده استعمالاته المتعددة لكلمة بيان في كتابه البيان والتبيين [1] ففي ص ٨ و ص ٤٠ و ص ٤٣ من الجزء الأول يستعمل كلمة بيان في مقابل كلمة العي وبمعنى سلامة النطق وحسن تأدية الحروف وفي ص ٩ و ص ٤٣ من نفس الجزء يستعملها بمعنى الفهم والافهام وفي المعنى الذي استعملها فيه القرآن من إظهار الضمير والتعبير عن النفس في قوله : « خلق الانسان علمه البيان » . وفي ص ٥٩ من الجزء الأول يستعمل الكلمة بمعنى البلاغة حينما يورد إجابة جعفر بن يحيى لمن يسأله ما البيان بجواب ينطبق على ما يراد بالبلاغة ، ويؤيد الجاحظ هذا المراد بايراده أن جواب جعفر منطبق على قول الأصمعي في البلاغة . وفضلاً عن هذا فاننا لا نراه يتحدث عن كل ما تبحث فيه كتب البلاغة المتأخرة من تشبيه واستعارة وجناس وحشو أو يعقد لها فصولاً خاصة وذلك لأن هذه الأبحاث

(١) ملاحظة : أشرت الى أمكنة وأزمنة طبع الكتب التي استقيت منها في نهاية البحث عند ذكري المراجع ولهذا لن أذكرها مع المراجع في خلال البحث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تكن قد نضجت بعد ، ثم لأن غرضه من كتابه لم يكن يستهدف شرح مثل هذا ، وإنما هو مجرد عرض لآراء وأفكار أدبية سريعة في بداية مراحلها ينقصها العمق والتوجيه . وأكثر ما نراه يولع به في كتابه ويوليه العناية هو الحديث في فصاحة الألفاظ ، وكيف يجب أن تخلو من التعقيد والتنافر وعدم الألفة والغرابة والسوقية ثم الاكثار من مدح الايجاز والوضوح ومراعاة المقام في الكلام وإعطاء كل موضوع ما يلائمه من الألفاظ . وقبل التعرض لرأي الجاحظ نفسه في البلاغة بين اللفظ والمعنى يحسن ايراد ما ذكره هو من أقوال الناس قبله في البلاغة وفي اللفظ والمعنى بصورة خاصة ، وذلك بأكثر ما يمكن من الاختصار ، ليستأنس بها ويتبين مدى تأثره بعصره وبما حفظه ورواه سواء أكان هذا التأثر إيجابيًا أم سلبيًا .

ذكر الجاحظ في (ص ٢٦ ج ١) من البيان والتبيين رأي معاصره ابي داود ابن جرير في الخطابة المستحسنة وخلاصته أن تلخيص المعاني رفق وأن الواجب ترك الغريب وان بهاء الخطابة تخير اللفظ .

وذكر في (ص ٤٩ ج ١) قولاً لابراهيم بن محمد في البلاغة يتلخص في أنها حسن التأدية بحيث لا يغبن السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع .

وأورد للبلاغة اربعة تعاريف لأربعة رجال من أمم مختلفة ، لثقافاتها اتصال وثيق بالثقافة العربية حينئذٍ ، وهي الفرس واليونان والروم والهند (ص ٤٩ ج ١ من البيان والتبيين) فقال : « قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام واختيار الكلام وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة ، وقيل للهندي ما البلاغة ؟ فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة » . ثم قال وقال بعض أهل الهند : « جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بموضع الفرصة ، ثم قال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ـ أي بعض أهل الهند ـ : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح أوعر طريقة وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالظفر .

ويذكر (ص ٥٢ ج ١ البيان والتبيين) الصحيفة الهندية التي دفعها ابن الأشعث للتراجمة ليترجموها الى العربية وفيها صفات الخطيب الحسن وتتلخص في أن يكون حائزاً على الصفات الشخصية من نفسية وجسمية التي تعينه على الخطابة والتأثير في الناس وأن يكون متخير اللفظ بلائم بين المقام والمقال ، لا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح الا حين الكلام مع الفلاسفة ، وأن يحسن لفظه تأدية معناه ، ويكون كلامه حسن الارتباط خالياً من التناقض ، ولفظه مونقاً وأن يفهم كل قوم بقدر طاقتهم .

ويذكر رأى ابراهيم بن هانئ (ص ٥٢ ج ١ : البيان والتبيين) في اللفظ والمعنى ومؤداه أنه ليس من لفظ يسقط أبداً ولا من معنىً يبور أبداً حتى لا يصلح لمكان من الاماكن .

ونرى في (ص ٥٤ ج ١ من نفس المرجع) أعرابياً يعرف البلاغة بأنها الايجاز في غير عجز ، والاطناب في غير خطل .

ويصف ثمامة بن أشرس جعفر بن يحيى بالبلاغة (ص ٥٨ ج ١) فيقول إنه لا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص من معنى قد استعصى عليه طلبه .

ويصف جعفربن يحيى البيان (ص ٥٨ ج ١) بما معناه أنه كمال التأدية مع الوضوح ، وعدم التكلف والتعمق الكثير ، والاستغناء عن التأويل ، ويعلق على ذلك الجاحظ بأنه هو معنى نفس قول الأصمعي : « البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر » ثم نرى ثمامة في نفس الصفحة يمدح كلام أم جعفر بانه بالنسبة الى كلام ابنها « أجود اختصاراً وأجمع للمعاني » فلا يخرج كلامه عن معنى الايجاز الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نرى ثمامة بعد ذلك في ص ٦٣ ينصح الأدباء ان يأخذوا به قائلاً : « ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » .

ويسأل رجل عمرو بن عبيد عن البلاغة (ص ٦١ ج ١ البيان والتبيين) فيعرفها أخيراً ـ بعد ان يجيب عنها متجاهلاً بعدة اجوبة لا تتعلق بمراد السائل ولا بمعناها المتداول متبعاً في ذلك اسلوب الحكيم ـ بأنها تحبير اللفظ في حسن الافهام . ومما ذكره في صفتها قوله : « وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، وينصح بان لا يطول الكلام لأن طوله يدعو الى التكلف .

وفي ص ٦٣ من نفس الجزء يذكر قول بعضهم ، ومعناه ان الكلام البليغ يتصف بحسن التعبير وبالوضوح وهو : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك » . واورد الجاحظ ان ابن المقفع سئل عن البلاغة فقال ـ (ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين) : انها اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة وأن الايجاز هو البلاغة ـ الا في مواقف الخطبة بين السماطين واصلاح ذات البين فالاطالة بغير خطل ولا املال ـ وان البلاغة ايضاً في دلالة صدر الكلام على حاجة المتكلم وفي اعطاء كل مقام حقه . واورد كلام بشر بن المعتمر فيما يجب ان يتوفر فى الكلام ليكون بليغاً (ص ٦٥ ج ١ البيان والتبيين) ومؤداه ان الكلام يجب ان يسلم من التوعُّر والتعقيد الذي يستهلك المعاني ويشين الألفاظ وان حق المعنى الشريف ، اللفظُ الشريف وان يكون اللفظ رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً والمعنى ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً وان مدار شرف المعنى على الصواب فلا يرفعه انه من كلام الخاصة ولا يضيعه أنه من كلام العامة ، وان يوافق المقال وان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ان تُفْهِمَ العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ التي تفهمها العامة ولا يحتقرها الأكفاء ، وان تضع كل كلمة في موضعها دون اكراه لها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقول إن البليغ انما يرزق ذلك موهبة لأن الشيء يحن الى ما يشاكله ، ويجب عليه أن يوازن بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين وان يجعل لكل مقام مقالاً .

وذكر ما عابه الأصمعي على شعر الحطيئة (ص ١١٥ ج ١ البيان والتبيين) من الصنعة وتفضيله شعر النابغة الجعدي لأنه طبعي خال من الصنعة فيه قرط بآلاف وخمار بوافٍ - على حد تعبير الأصمعي - ، ثم عاد الى ذكر رأي الأصمعي هذا مرة ثانية (في الجزء الثاني من البيان والتبيين ص ٦) وعلق عليه بانه يخالف رأي الرواة والشعراء .

وأورد (في ص ١٤١ ج ١ من نفس المرجع) قول بعض الربانيين في بعض مواعظه محذراً من تأثير الكلام البليغ في إضلال الناس وقد جاء في جملته : « والمعاني اذا البست الألفاظ الكريمة ، وأليست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها ، وصارت الألفاظ بمعنى المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجواري » .

وقد أورد الجاحظ كل هذه الأقوال السابقة التي اختصرتها من دون ان ينقدها أو يعلق عليها ، ولم يذهب الى انكار أي قول منها ، او الانتقاص منه فكأنه يوافق على ما تضمنته .

واذا تأملنا ما ورد في تعاريف وأوصاف البلاغة السابقة نجدها اما تعاريف مبهمة عامة لا يتبين العناصر التي اذا توفرت في الكلام كان بليغاً ، واما وصف ناحية او نواح من البلاغة تنطبق على كلام دون كلام ، او تعريف لها من حيث غرضها وفائدتها أو وصف عمل من جملة أعمال اذا قام بها البليغ في نظم كلامه استطاع أن يجعله بليغاً . ولم يَحُمْ أي واحد منهم حول ما ندركه نحن من مفهومها الآن وهو أنها الجمال في القول وأن علم البلاغة هو درس فن القول وبيان مواطن الجمال فيه ، والأسباب والوسائل التي تساعد على ايجاده ، كما أن كل هذه الأقوال لم تتعرض الى جوهر النظرية التي نحن في صدد دراستها الآن . فلم تبين فيما اذا كان موضع الجمال في الكلام هو الألفاظ على حدة أو المعاني على حدة أو كلاهما معاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صحيح أن بعضها امتدح جمال الألفاظ وخلوها من التنافر ، ووضوح المعاني وسلامتها من التعقيد ، وحسن السبك وجودة تأديته للمعنى ، ولكنها على كل حال لم تبين قيمة احد الطرفين بالنسبة الى الآخر وتناولت الكلام عنهما باختصار وإبهام . فمن المسلَّم به أن للكلام عنصرين في جملة عناصره هما اللفظ والمعنى وأنهما إذا حسنا فيه حسن ولكن هذه المادة التي هي المعنى والتي يعبر عنها بالألفاظ المنظومة وفق ترتيب معين بدونه لا يكون الكلام دالاً ولا جميلاً ، لم تناقش قيمتها بالنسبة الى الصورة التي ظهرت فيها ، ولم يبين فيما اذا كان الجمال في سبك الكلام راجعاً الى ترتيب المعاني في النفس ، أم الى توالي الألفاظ في الجرس كما لم يبين فيما اذا كان ترتيب الألفاظ تابعاً لترتيب المعاني الجزئية التي تنتظم المعنى الكلي أم تابعاً لمراعاة انسجام هذه الألفاظ بعضها مع بعض مع قطع النظر عن معانيها . وهذا هو أساس نظرية عبد القاهر التي دعتنا الى معالجة هذا الموضوع .

هذه الأحكام المبهمة الساذجة في وصف الكلام البليغ وتحديد معنى البلاغة بصورة تقريبية كانت مبنية على الذوق الأدبي الصرف السريع ، ولم تكن مبنية على دراسة علمية محصية ! وربما كانت لهذا خيراً من دراسات المتأخرين التي جمدت البلاغة في قواعد ميتة نظرية ، تتعب الذهن في دراستها وحفظها ، بدون أن تساعد على تذوق الأدب او انشائه بل ربما كانت شراً على من يأخذ نفسه بها إذا لم يكن ممن يمتعون أنفسهم بدراسات نصوص كثيرة من الأدب الرفيع .

واذا أردنا أن نرسم صورة عامة للبلاغة من مجموع هذه النصوص ، وهي الصورة التي يظهر ان الجاحظ قد ارتضاها لأنه اوردها كما قلنا دون أن ينكرها ، قلنا أن البلاغة معنى شريف يتلاءم مع لفظ شريف جميل بحيث يكون منهما كلام خال من التعقيد والتوعر والتنافر ، مناسب لمقتضى الحال من حيث الايجاز والاطناب واختيار الألفاظ والمقام ، واضح الغرض جميل الصور والأسلوب خال من الألفاظ السوقية والغريبة والمعاني المبتذلة قريب من الفهم بعيد من التكلف خال من التناقض وضعت اللفظة فيه موضعها وكانت لصقاً وطبقاً للمعنى الذي وضعت له .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا قسنا هذه الصورة التي رسمناها واستخرجناها من جميع ما ذكره الجاحظ من أقوال سابقيه في البلاغة بما نعرفه الآن من عناصر الجمال في القول ، وجدناها تفتقد عنصرين هامين هما عنصر العاطفة التي لم يشيروا اليها من قريب ولا بعيد ، وعنصر الخيال بنوعيه التأليفي والتصويري القائم على التشبيه والذي اشار اليه بعضهم في قوله « وان يتوفر في الكلام حسن الصورة » ـ اذا كان يقصده بذلك أيضاً ـ ثم نجد أنهم لم يولوا الفكرة العامة الموجّهة لوضع القطعة الأدبية اي اهتمام . ومن البدهي ان لا ترسم هذه الاقوال المرتجلة المختصرة طريقة مفصلة لأداء الفكرة العامة وكيفية اخراجها خصوصاً وأن علم البلاغة حين تم وضعه في العصور التي تلت ذلك لم تول هذه الناحية جانباً من الاهتمام وانما اهتمت فقط بكيفية اداء الجملة القصيرة ومقارنة الجمل القصيرة بعضها ببعض من حيث البلاغة . والنص الوحيد الذي فخّم جانب اللفظ من بين النصوص السابقة دون أن ينص صراحة على تقديمه على المعنى هو نص احد الربانيين الذي سبق ذكره [وذكره الجاحظ (ص ١٤١ ج ١ من البيان والتبيين)] بجعل المعاني تزيد على حقائق اقدارها إذا هي كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة .

رأينا كيف صمت الجاحظ بعد إيراده النصوص السابقة ولم يبد فيها رأياً خاصاً ، ولكنا نراه يخرج عن صمته بعد ايراده نقد ابي عمرو الشيباني لبيتين من الشعر (ص ٤١ ج ٣ من كتاب الحيوان) قال : « وانا سمعت ابا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد الجامع يوم الجمعة أن كلف رجلاً حتى احضره قرطاساً ودواة حتى كتبهما وانا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً ابداً ولولا ان أدخل في الحكومة بعض الغيب لزعمت ان ابنه لا يقول الشعر ايضاً ، وهما قوله :

« لا تحسبن الموت موت البلا وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا اشدّ من ذاك على كل حال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم قال وذهب الشيخ الى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير » .

فالجاحظ في نقده هذا يرى المعاني موفورة لكل انسان ويرجح ناحية اللفظ على ناحية المعنى صراحة ، وهو انما يقصد بالمعاني المعاني العامة كوصف الرجل الكريم بالبحر وما اشبه ذلك ولا يريد بها المعاني التفصيلية الجزئية ، ولا هذه المعاني الثانية التي يسميها عبد القاهر الجرجاني معنى المعنى والتي هي الصور التي يبرز فيها المعنى البدائي في ثوب قشيب مزركش ، الا ان الجاحظ اجمل ولم يفصل ويؤخذ عليه على كل الأحوال اهماله جانب المعنى الذي هو في الحقيقة ، بالنسبة للألفاظ ، كالروح بالنسبة الى الجسم ، وانما وضعت الألفاظ لتدل على المعاني ، الا انه يجب ان لا يغيب عن بالنا ان الجاحظ في هذا النص يضع في جانب اللفظ اموراً اخرى كصحة الوزن وكثرة الماء وجودة السبك ويضيف الى ذلك حكمه بان الشعر صياغة وضرب من التصوير فهو قد راعى اذن في جمال القول الفني ناحية الخيال بذكره التصوير وناحية الأسلوب والنظم بذكره السبك والصياغة ثم راعى بقوله كثرة الماء ، الذي يعبر به عن الحياة المنبثة والمنبعثة من خلال القطعة الفنية ، ناحية العاطفة ولكن بكثير من الاختصار والابهام . وهو يدلنا على انه كان يشعر بشيء من جمال ابراز الأديب للعاطفة دون ان يحسن التعبير عنه . وهو ما كان يعبر عنه غيره بقوله : ان هذا الكلام له ماء ورونق .

وفي هذا النص نرى الجاحظ خلافاً لبشر بن المعتمر وغيره من الذين ذكر آراءهم في البلاغة ينحاز الى جانب اللفظ وينصره ولا يبقى آخذاً بآرائهم من أن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف كما قال بشر ـ فيكون اللفظ مع اعطائهم قيمة كبيرة ، له تابعاً للمعنى وكلُّ ما نصحوا به هو أن يُحسَن اختيارُه بحيث يحسن تأدية المعنى ويكون فصيحاً ، ولكنه يحمل على المعنى وينكر أن يكون له

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شأن . وإنما استفزه الى ان يجور عليه مبالغة ابي عمرو الشيباني في نصرته بحيث عدّ من القول الجميل ما ليس منه لمجرد أن معناه تضمن حكمة برغم أنها كانت جافة لم يحسن تصويرها ولا سبكها ولا اختيار الفاظها . ولكن الجاحظ لم ينصر اللفظ هذه النصرة إلا في هذا المكان . أما في غيره فهو يوجز في تعريف الكلام البليغ ولكنه غالباً يقرن حسن اللفظ بحسن المعنى ففي ص ٤٢ من الجزء الأول من البيان والتبيين يقول ما معناه أن حسن الكلام يزداد كلما كان المعنى أظهر ، وذلك يدرك بوضوح الدلالة وحسن الاختصار ودقة المدخل ، وفي ص ٤٧ من نفس الجزء يقول ما خلاصته أن أحسن الكلام ما كان موجزاً واضح المعنى صادراً عن شعور صادق شريف المعنى بليغ اللفظ صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه مصوناً عن التكلف وحينئذ يؤثر في السامع فهو يخرج من القلب ليقع في القلب ويصنع فيه ما يصنعه الغيث في التربة الكريمة ونرى في هذا الوصف إدراك الجاحظ لأثر العاطفة وصدق الاحساس في تكوين القول الجميل ، وقد راعى فيه جانب المعنى وقسطاً من جانب الأسلوب ولكنه لم يذكر جانب الخيال بخير أو شر . وفي ص ١٩٦ من نفس الجزء يتكلم عن الكتّاب فيقول إنهم يتخيرون الألفاظ وينتخبون المعاني وانهم يأخذون جانب الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والطبع المتمكن ـ يريد به الموهبة الخاصة بالأديب ـ والسبك الجيد والكلام الذي له ماء ورونق ، فجمع بين اختيار اللفظ واختيار المعنى ولم يهمل الأخير . وفي ص ٤ من الجزء الثاني من البيان والتبيين نراه يعطي للمعاني قيمتها أيضاً الى جانب الألفاظ ووضوح الدلالة بحيث لا يجهد المستمع نفسه للفهم ، ويقول إن هذا يدرك بعدم التكلف فإن كلام الأعراب إنما حسن لأنه خلا من الألفاظ المسخوطة والمعاني المدخولة والطبع الرديء والقول المستكره ، وكل هذه الصفات الرديئة تكثر بين المتكلفين أهل الصنعة ، ونراه (في ص ٨١ من الجزء الأول من البيان والتبيين) يمدح الايجاز فيقول : « وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلص الى حبات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القلوب والى إصابة عيون المعاني » فيقولون : « أصاب الهدف وقرطس وأصاب القرطاس ورمى فأصاب الغُرَّة وأصاب عين القرطاس إذا بلغ النهاية فى الاصابة » .
وفي كل هذا نراه لا يخرج عما ذكر من أقوال سابقيه في البلاغة .

ثم نراه يذكر (ص ٤٨ من نفس الجزء) حقيقة نفسية هي أن المعنى الحقير واللفظ الدنيء أسرع حفظاً من اللفظ الشريف والمعنى الرفيع وينصح بحسن الاختيار حين الحفظ لأن ما يكتسب بمجالسة السفهاء في ساعة لا تمحوه مجالسة أهل الفضل سنين .

ويذكر في ص ٤٣ ج ١ من البيان والتبيين أن المعاني لا تتناهى بعكس أسماء المعاني ـ أي الألفاظ فهي محدودة ويذكر في ص ٧٥ من نفس الجزء أن الأسماء لا تستوعب المعاني لهذا ينبغي حسن الاختيار ، ويجب اعطاء كل موضوع الالفاظ التي يستحقها ويقول (في ص ٨١ من نفس الجزء) أنه قد يحتاج الى السخيف من الألفاظ للسخيف من المعاني ، وفي سبيل هذه الفكرة ـ فكرة تلاؤم الألفاظ مع المعاني والمواضيع التي جيء بها لأجلها يقول في ص ١٢ من نفس الجزء إن القرآن قد استعمل ألفاظاً دون مرادفاتها في مواضيع دون اخرى (وذلك لتأدية هذه اللفظات نبرات ومعاني إضافية كامنة فيها تتلاءم مع الموضوع الذي تقال فيه ومع مكانها من الجملة) وضرب مثلاً على ذلك استعمال القرآن للفظتي المطر والغيث في موضعين مختلفين من حيث المقام وقال في نفس الصفحة ما مؤداه إن العامة لا تصلح حكما في انتخاب الألفاظ لفساد ذوقها فقد تأخذ اللفظ القبيح وتترك الجميل كما قد يشتهر عندها من لا يستحق الشهرة .

ومیل الجاحظ الى ناحية اللفظ في جمال الأداء يظهر في حملته على تنافر الألفاظ في الشعر والنثر وضربه أمثلة من الشعر عليها (ص ٣٧ ج ١ من البيان والتبيين) وفي قوله بضرورة تلاؤم الألفاظ بعضها مع بعض في الكلام ليكون مسبوكا سبكاً واحداً جميلا (نفس الصفحة والجزء السابقين) ثم كلامه في الحروف التي لا يتلاءم بعضها مع بعض وذكرها بالتفصيل (ص ٣٩ من نفس الجزء) ، ويظهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تفضيله ناحية اللفظ أيضاً في إلحاحه على امتداحه في كل مناسبة فهو يقول بأن الكتاب هم أمثل الناس طريقة لأنهم قد التمسوا من الألفاظ ما خلا من التوعر والوحشية والسوقية الساقطة (ص ٧٦ من الجزء الأول : من البيان والتبيين) ثم يكرر ذلك (في ص ٨ من نفس الجزء) فيقول إن اللفظ يجب أن لا يكون عامياً ساقطاً سوقياً وكذلك يجب أن لا يكون غريباً وحشياً إلا حين الكلام مع الأعراب الذين فطروا على ذلك ويظهر في هذا القول فكرة ملاءمة المقال للمقام . ويعود (في ص ١٤٢ من نفس الجزء) الى الالحاح على هذا المعنى فينصح بتجنب السوقي وعدم الإيغال في تهذيب الألفاظ وتوخي غرائب المعاني ، وأن ينتخب المتكلم الحالة الوسطى ويرجع (في ص ٣ من الجزء الثاني من البيان والتبيين) بعد ذلك ، فيقول (إن اللفظ يكون حسناً حينما يكون كريماً متخيراً خالياً من الفضول والتعقيد .

ويخالف الجاحظ رأي الاصمعي في الحملة على شعراء الصنعة (ص ٤ ج ٣ من البيان والتبيين) ؛ وذلك على ما يظهر لانحيازه الى جانب اللفظ فتراه يستحسن تنقيح ذوي الصنعة لنتاجهم الأدبي .

ويستخلص من كل ما مر في كتابي البيان والتبيين والحيوان للجاحظ أن أحكام المؤلفين في البلاغة حتى عصر الجاحظ كانت بدائية مبهمة مبنية على الذوق تشمل اللفظ والمعنى وعناصر غيرهما ترجع اليهما في غالب الأحيان ، وأنهم لهذه النظرة المجملة لم يكونوا ينصرون جانباً على آخر إلا ما كان من ابي عمرو الشيباني الذي نصر في ابهام جانب المعنى . فلما جاء الجاحظ توسع في بحث البلاغة إلى درجة ما ، وتعرض لأبحاث الفصاحة في عرفنا بصورة خاصة ، كما ناصر جانب اللفظ بمعناه الخاص عنده الذي يشمل جانب الأسلوب وجانبي العاطفة والتصوير أيضاً .

(يتبع) نعيم الحمصي

م (٩)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net